انقداح اللغة الصوفية

الشاعر محمد صالح صرخوه*

إنّ كـون الإنسـان كائنًـا اجتماعيًـا يعيش فـي الجماعة بمسـتوياتها كافّـة، ابتداءً من الأسـري الصغيـر وصولًا إلى العائلي وانتهاءً بالحزبـيّ أو الدينيّ المذهبيّ مثلًا، يتطلّب منهاجًـا خاصًّـا يـؤدّي دور الأب المهـذِّبِ لأبنائـه، وهـذا بـدوره يتطلّب توجّهًـا خاصًا تقـوده القيـادات المجتمعيـة بمختلـف مواقعهـا كل حسـب دائرتـه، فهنـاك القيـادة السياسـية المتمثلـة بالأنظمة الحاكمة، وهي بما تملك من قـدرات وإمكانيات مادية تتحمـل الـدور الأثقـل في هذه التربية، وهنـاك أيضًا الزعامات الفكريـة، دينيّة كانت أو لادينيّة، وهناك رأس الهرم في الأسـرة، أي الأب .. ربّ الأسـرة، بيد أنّ المشـهد الواقعيّ يضـع هـذا الاهتمـام التربويّ الجمعـيّ في سـفح هـرم أولويّـات الأنظمـة الحاكمـة، إذ لا شـغل يشـغلها إلّا ابتـكار شـتّى أطبـاق الوهـم المزيّنـة علـى مائـدة الحيـاة اليوميّـة، وذلـك كلّـه في سـبيل إلهـاء الفـرد وبقيّـة أقرانه فـي المجتمع نفسـه، وتشـتيت بوصلة الفكـر ليبقـى دائمًا منتصبًا أمـام احتياجات الجسـد، وطالما امتلكـت الدولة مفاتيح الجسـد وحاجاتـه يبقـى الفـرد خاضعًـا، ويسـلم المجتمـع عنقـه أمـلًا بلعقـة! إذ ذاك يتحـوّل الاهتمـام البشـريّ كلّـه إلى الخـارج وما فيـه من ملـذّات مأمولة، وذلـك يُصنع صنعًـا فـي مختبـرات المتآمرين! يشـرف عليها خبراء سياسـيّون واقتصاديّـون وعلماء نفـس، يسـتثمرون كلّ مـا توصّل إليه العقل البشـريّ مـن فتوحات علميّـة على صعيد

* عضو في ورشة السهروردي الفلسفية - الكويت sr-muhd@hotmail.com

المادة، وعلى صعيد السلوك البشريّ، لإنجاح تلك المؤامرة الكبرى على العقل!
وذلك يتمّ على المثال التالي:

هل ترى فيَلَةَ السيرك وعروضهم ؟!

ثمّة فيل جائع متعب منهك بزيّ مهرج، يحمل على رأسه قبعة زرقاء مزركشة بنجوم بيضاء، تقوده ضربات السوط المتدلّي من يد مدرِّب محترف يحمل بيده الأخرى موزة منتصبة، ومن حولهم يتحلّق الجمهور التائق لرؤية العجائب! فما الذي يريده كلّ منهم؟

ثمّة أطراف ثلاثة في هذا المشهد، الفيل، المدرّب، والجمهور..

أمّا المدرِّب، فيرغب بما قدّره من أرباح ماديّة يحصدها من جيوب الجماهير، أمّا الجمهور فيرغب بعرضٍ عجائبي متمثّل بقيام الفيل ببعض الحركات البهلوانيّة الخارجة عن طبيعة الفيلة، يرغب بها لأطول مدّة ممكنة، ولمّا كانت رغبة المدرّب قابعة في جيوب الجماهير، تطلّب الأمر حمل موزة بإحدى يديه يلوّح بها لناظرَي الفيل، أمّا الفيل فلا رغبة لديه غير أكل الموز! وذلك ما سيضمن كينونته كحلقة أضعف في العرض، أمّا إن فكّر لوهلة بتجاوز رغبته الجسديّة والاندفاع نحو الطرفين المقابلين ككتلة صخريّة متدحرجة من أعلى قمم اليأس، فسيكون سوط الجلاد حاضرًا!

ولنسأل الآن أنفسنا هذا السؤال:

ترى .. ما مدى أهميّة حصول الفيل على الموزة بالنسبة إلى الجمهور والمدرّب ؟! ما أهميّة كونه تعبًا جائعًا منهكًا؟ والأهم من كل ذلك، ما أهميّة كونه غريبًا بعيدًا من غابته الاستوائيّة ومجتمعه الحيوانيّ ؟!

أمّا الأطراف الثلاثة، الفيل، المدرّب والجماهير، فكلّهم مستسلم لرغبات الجسد! أمّا الفيل فهو الشعب، إذ يوهمه الحاكم (المدرب) بأملٍ جسديّ لا يعدو كونه فتات مائدته الصباحيّة، في سبيل استخراج واستنفاذ كلّ طاقات الشعب البشريّة في الإنتاج أو فلنقل في الخضوع، تارة تحت شعار الولاء للوطن، وتارة تحت شعار الفرد الطموح، وتارة تحت شعار المشاركة السياسيّة في بناء الدولة، وحينًا تحت شعار

الديمقراطيّة، فتنتشر إذ ذاك الفوضى بين أفراد المجتمع، وتتلاشى الفعاليّة العقليّة، لتصبح الحقيقة كائنًا هلاميًّا خميريًّا يشكّله الحمقى كما يحلو لهم، فيضطرون إلى وسائل الإعلام، من صحف ومجلّات وإذاعات وقنوات فضائيّة، ومواقع التواصل الاجتماعيّ، لتداول الشتائم والآراء التافهة في كلّ شيء، متفوّقين على الفيل بعروضهم البهلوانيّة والسياسة، ويكون جلّ ما تتّجه إليه أنظارهم .. موزة منتصبة!

أمّا المدرب (الحاكم) فيفعل ذلك لجني منفعته من الجمهور، ولمنفعته وجه آني، متمثّل بما سيجنيه من مال إثر العرض البهيج، والآخر وجه استراتيجيّ متمثّل باستمراريّة بقائه مدرّبًا! أمّا هاتان الرغبتان، فموزة الجماهير!

الجمهور هو تلك الأنظمة الدوليّة المهيمنة التوسعيّة، ذات النفوذ والمصالح العابرة للقارات، والضمانات الأقوى، إذ تهيمن على الحاكم بما توهّمه من تسخير قواها كافّة لصالحه، بما يضمن له الاستمرار في سدّة الحكم، ويمنع عنه الغزو الخارجيّ المرتقب من أعداء وهميّين! وتضمن له على أسوأ الأحوال أرصدة مكّوكيّة في بنوكها العالميّة المعتبرة.

والآن .. وفي كلّ تلك الرغبات والمصالح لدى الأطراف الثلاثة كيف نعثر على واحدة روحيّة أو عقليّة.. لا جسديّة ماديّة!

هذا هو حجم الصنم، وضخامة الوهم، فما الذي يحجبه عنك هذا الصنم الدخاني؟ وكيف السبيل إلى كسره؟ وما الذي سينتج على إثر كسره وعلى أيّ صعيد من الأصعدة سيكون الناتج؟

إنّها الحركة وسلطانها القابض على الأبعاد الثلاثة، تبدأ الحركة في الخارج سارقة انتباه الفرد مستحوذة على جلّ تركيزه، وتتمثّل الحركة بما أسلفنا من رغبات جسديّة وظروف حياتيّة عامّة وخاصة، فتحيط بالفرد مطبقة عليه كلّ الآفاق، لينحصر وعيه كلّه في صيرورتها النهمة، بلا توقّف.. ملتهمة زمانه كلّه، فيكون بذلك إمّا متحرّكًا لتلبية ما تلحّ به عليه من رغبات ضروريّة كانت أو كماليّة، أو خاويًا تعبًا منهكًا، يدّخر بضع ساعات لنومه، فان لم يشأ النوم، صرف لحظات السكون الجسديّ بالتفكير بتلك الرغبات والمخاوف! بحركة عقليّة لكنها ليست نحو العقل وحقائقه،

وإنّما نحو الجسد والخارج.

إنّ كون التفكير طيرًا داخليًا، يتطلّب حتمًا سماءً عقليّة صافية، ولتحقيق صفاء الذهن المنشود، يحتاج الفرد وقتًا من عدم الالتفات للخارج، وعدم الالتفات للخارج يعني إيقاف الحركة الخارجيّة الواردة إلى النفس من بوابات الحسّ، والتي بدورها محكومة بمفاتيح الرغبات والمخاوف، وهنا تكمن خطورة الخارج، إذ بوقوفه على أرضيّة الطبيعة البشريّة (الجسديّة المعيشيّة) وضروراتها، يقتحم خلوات العقل والقلب، لتتشتّت أفكار الفرد فلا يعود قادرًا على قراءة صفحة واحدة من كتاب، ولا التفكير لبرهة في هويّته، من هو وماذا يريد، ولمَ هو هنا في هذا العالم؟ وأمّا القلب فمنجرف كغصن ذابل بتيار نهر جبليّ، ومتى ما تمكّن الفرد من إسكات صوت الرغبات والمخاوف، وحصره في أرضه المرسومة له، من دون إتاحة أدنى فرصة له للاستحواذ على طروادة عقله، يكون قد خطا أولى خطواته باتجاه المعنى، ومدار الحقيقة وتشكيل لوحة المعرفة بألوانها الزاهية، ومشاهدها الخلّابة البديعة، ومع كثرة التمرّن على ممارسة هذه العمليّة التجريديّة، سيقف الفرد على وهم الخارج بركائزه الزمكانيّة كلّها، وهو الأمر الذي ليس للأنظمة الحاكمة (الاستعمارية) أيّ نيّة لقبوله .. ولأجله أقامت جلّ وسائل السرقة .. سرقة الذهن، والوقت!

فما تفاصيل هذه السرقة؟ وما طبيعتها؟

تتطلب أيّ عمليّة فكريّة وجود العنصرين، الثابت والمتحوّل، بل إنّ ذلك ما يتطلّبه كلّ جزء من أجزاء الحياة، فلنتخيل عدم وجود قانون عقلي متمثّل بالبديهيات (كأن نعرف أنّ الجزء لا يشمل الكلّ، فالغرفة لا تشمل المنزل، بل المنزل يشمل الغرفة، فالكلّ هو الشامل للجزء)، في إطار نقاش بين طرفين، كيف سنحكم بصحّة رأي طرف وخطأ رأي الآخر؟ أو لنتخيل عدم وجود النحو في اللغة، كيف سنميّز الفاعل من المفعول به، والخ.. إذ لا تقوم أيّ فعاليّة فكريّة كانت أو سلوكيّة اجتماعيّة أو أيّ صنف من صنوف الفعاليّات البشريّة بل وحتى الكونيّة الطبيعيّة إلّا بوجود الثابت والمتحوّل.

ثمّة نظام شامل قائم في كلّ شيء، في كلّ تجليّات الحياة الفكريّة والسلوكيّة

العمليّة، ثمّة ما هو ثابت يؤدّي دور المرجعيّة القانونيّة، وثمّة متحوّلات خاضعة لكلّ عوامل التغيّر والصيرورة، فنحن مثلًا نرى رجلَين متساويَي الطول، ونرى في حالة أخرى قلمَين متساويَي الطول، ونرى في حالة مغايرة حائطَين متساويَي العرض، ونرى في حالة أخرى وأخرى طالبَين متساويَين في الدرجات الدراسيّة، التساوي واحد والحالات مختلفة، فالتساوي في المثالين الأوّلين كان في الطول، وفي المثال الثالث جاء بالعرض، وفي الرابع جاء بالدرجات الدراسيّة، فما الذي يجمع كلّ هذه الحالات ببعضها البعض؟ إنّه التساوي. فهو الثابت المجرّد العقليّ غير المتجسّد في شكل، فهل ثمّة شخص يدّعي مشاهدة جسد التساوي أو لونه أو رائحته؟

لا .. وإنّما كلّ ما نشهده من التساوي هو تطابقات الأشياء المجسّدة معه، كالرجلَين والحائطَين والطالبَين، فالتساوي إذًا هو الثابت المجرّد المعقول، والأمثلة المضروبة كالرجلَين والحائطَين هي المتحولات المحسوسة، ولو جلسنا في مطعم أو مقهى ذي طابع فارسيّ تقليديّ، فهل يجوز لنا تشغيل موسيقى الجاز أو الروك في ذلك المقهى؟ بالطبع لا .. فما السبب؟

ثمة نسق هناك عبّرنا عنه باسم (طابع) يحكم المكان الذي نجلس فيه الآن (المقهى الفارسي التقليدي)، ذلك النسق هو الثابت، والأشياء التي في المقهى من أثاث ومعدات الطهي والتقديم ولائحة الطعام وبقيّة السلع والخدمات المقدّمة هي كلّها متحوّلات، إذ لا يمكن استبدال النسق بآخر، فلو استُبدل لتغيّر طابع المقهى برمّته وكفّ عن كونه تقليديًّا فارسيًّا، فقد يتحوّل إلى إيطاليّ أو فرنسيّ أو هنديّ، بل قد يكفّ عن كونه مقهى ويتحوّل إلى محل لبيع قطع الأثاث المعمّرة، أو دكّان خياطة، وذلك لأنّه الثابت الذي يشكل ويسند عالمه (المتمثّل في هذا المثال بالمقهى الفارسيّ التقليديّ)، وأمّا محتويات المقهى الذي عبّرنا عنها بالمتحوّلات، فيمكن استبدالها دومًا، إذ قد نستبدل السجادة الكرمانيّة بسجادة يزديّة ونستبدل الكرسيّ الخشبيّ بآخر حديديّ أو بلاستيكيّ، وقد نستبدل اللحوم الحمراء بالبيضاء والخ .. من دون أن يؤثّر ذلك التغيير في جوهر المكان وطابعه.

بانعدام الثابت ينعدم النظام ويتلاشى كلّ ما فيه، الثابت واجب حتى في أكثر الأمور بداهة وبساطة، وما المحاورات الأفلاطونيّة التي نسجها أفلاطون مستعينًا برمز أستاذه ومعلمه الشهيد سقراط إلّا محاولات للتوصّل إلى الثابت في كلّ ما تطرّق إليه من موضوعات، وهو أمر يتضمّن حتى مجال اللغة .

هكذا يعمل الذهن، فالتحدي يكمن هنا إذًا، في هذه العلاقة بين الفكر واللغة، بين الفعل والقول .. ولمّا كان الأمر يعني ضرورة الالتزام بالمسئولية تجاه الكلمة والأفكار التي خلّفها، أدركت الأنظمة السياسيّة ذلك منذ أمد بعيد، فاحتكرت حقّ (الكلمة) محدّدة ثوابت الإنسان، أو بالأحرى، ناثرة ثوابت البشريّة كإبرٍ موزّعةٍ بين جبال القشّ .. كان، ولا يزال الأمر على هذا النحو.

إنّ الفزّاعة القديمة التي نالت نصيبها من الرواج والشعبيّة لدى جميع أعداء المعرفة من أتباع المذاهب السفسطائيّة كانت وما زالت الشعرَ وقدرتَه السحريّة على التلاعب بالكلمات، هي القدرة السحريّة على تمرير أيّة فكرة مهما كانت بشعة وتقديمها بمظهر فكرة لا تخلو من جدية، بحالة من اللامسئوليّة المبرّرَة!

يستخدم الفلاسفة والعرفاء والمفكّرون عمومًا ما يتاح لهم من أدوات برهانيّة لتشكيل تصوّر واضح حول فكرة أو معتقد ما، تلك الأدوات التي تعب قدماء البشر في اكتشافها على طريق العقل، ومن ثمّ مراقبتها وصقلها ليفهم الإنسان نفسه، والعالم الذي يحيا به بكلّ ما يتضمّن من تفصيلات وأنساق ونظم، ليفهم مثلًا كيف يقهر ظروف الطبيعة القاسية، كيف يمرض، وكيف يشفي نفسه، كيف يقرأ وكيف يكتب، وكيف يفكر ومن أين جاء ومن يكون وإلى أين يذهب، فإن وجد طاولة في حديقة بيته، يتساءل عن مصدرها، من صنعها ومن جاء بها إلى هنا، ولماذا .. لك أن تسأل صاحب الفكر والبرهان عن مفاهيم مجرّدة كالحريّة والحب والعالم والإله .. سيجيبك حتمًا، أمّا الشعراء فسيؤرجحونك في دهاليز اللغة بين جدران الصوت والصورة البلاغيّة، لتجد نفسك تجري ككرة تتهاداها أرجل اللاعبين إلى إشعار آخر!

الحقّ، هو غاية الفلاسفة والعرفاء، لذلك هم دائمًا مجهَدون متعبَون، فإن سألت أحدهم عن قضيّة ما تجده لن يدخر جهدًا في سبيل البرهنة عليها أو دحضها،

سيفتح كلّ ما أُتيح له من مخزون معرفيّ للتوصّل إلى حكم واضح فيها، وإن أردت أن يصيبك شيء من تلك الزوابع والأعاصير، يكفي أن تطّلع على شيء من محاورات أفلاطون مثلًا، ليبارك ذهنك الصداع! الصداع القادم من المسئوليّة الفكريّة ذات الصرامة المعرفيّة، إذ ليس ثمة فسحة لخطأ لغوي، أو سهوٍ في عرض البراهين والأدلّة.

يضع أرسطو مثلًا معايير التعريف بما يحقّق ماهية الشيء (وإن تبيّن عدم دقّة ذلك في ما بعد)، فهو يرى أنّ التعريف هو ذكر كلّ الصفات الجوهريّة والعرضيّة للشيء، فإذا سقطت إحدى تلك الصفات سهوًا عن الجملة التعريفيّة للشيء، لم يعد التعريف مجديًا.

إذًا فهي حالة صارمة من رسم الحدود العليا المتمثلة بالصفات الجوهريّة، والدنيا المتجسّدة بالصفات العرضيّة، كأن أعرّف حالة مجرّدة كالحبّ مثلًا بأنّه (حالة من الجذب تجمع ذاتَين أو أكثر في دائرة شعوريّة واحدة بحيث يستشعر كلّ الأطراف حضور الآخر في نفسه على شرط أن يكون أحد الأطراف على الأقل بشريًّا، يدعو تلك الأطراف إلى تداول الفعل الأخلاقيّ بين بعضهم البعض).

بسقوط أيّ عنصر من عناصر هذا التعريف يكفّ الحبّ عن كونه حبًّا، فان انتفى الجذب الجامع لتلك الكثرة أو انتفى وجود بشريّ واحدٍ على الأقل، بحيث كانت كلّ الأطراف جمادات مثلًا، أو انتفى الداعي لممارسة الفعل الأخلاقيّ، انتفى الحب، وإلّا فهل رأيت حبًّا يدعو المحبَّ إلى قتل حبيبه؟!

ثمّة حدود ثابتة واضحة لهذا التعريف، ببقائها يبقى وبزوالها يزول، أمّا لو سألت شاعرًا أو أديبًا من شعراء وأدباء هذا العصر (المشابهين لأولئك الذين كانوا في العصر السقراطي) عن الحريّة مثلًا، سيجيبك متنطعًا بعلكته بأنّ الحرية هي أن تنفث سيجارة في الهواء الطلق من دون أن يتدخّل أحد في شؤونك! الحريّة .. هي أن تدخّن سيجارة ثم تطفئها في أنف هرّ! الحريّة هي أن تنكح تفاحةً وتتناسل مع النخل! ولو سألته عن النفس، كيف تبرهن على وجودها، يجيبك .. النفس فكرة جميلة!

أن تكون شاعرًا أو قاصًّا، هو أمر يخلو من أيّ معنى، هو أمرٌ لن يميّزك عن أولئك المهرّجين في السيرك الإيطالي، أو مصارعي الثيران، أو لاعبي التنس، أو عارضي الأزياء، لن تمتاز بشيء عنهم أبدًا، هم يقومون بما يقومون به من باب الهواية، واستلطاف فعلٍ ما من أفعال هذه الحياة، يقومون بكلّ ذلك بمقاصد متنوعة، تتدرّج من لفت نظر الجماهير ونيل أكبر قدر ممكن من رضاهم وإعجابهم، الذي سيقودهم تاليًا إلى رضا النفس (بغضّ النظر عمّا إذا كان حقيقيًا أو زائفًا)، أو بقصد الرياضة والحفاظ على الصحّة مثلًا، أو بقصد حبّ التحدّي، والشاعر والقاصّ كذلك ..

ليس ثمّة أيّ معنى لأن تكون شاعرًا أو قاصًا، ما لم يتوقّف ما تكتبه على أمر واحد .. الحقيقة .. فقط وفقط، فالجدارة لا ترتبط أبدًا بقدرتك على التطرّق لمواضيع شتّى في قالب أدبيّ، بقدر ارتباطها بطبيعة تلك المواضيع، والزاوية التي تنتبذها أنت من الرؤيا.

ثمّة دواعٍ شعرية تقف وراء كل محاولة نفسية متجاوزة مهما كان شكلها، ثمّة أفكار مجردة لها من العمق والاتساع ما يجعل أي محاولة لحدّها في قالب لغوي يوميّ ضربًا من ضروب العبث، تمامًا كمن يحاول حبس جبل في قارورة. كفكرة الحبّ مثلًا، ثمّة ماديّات يمكن الإشارة إليها في هذا البُعد، كأن نشير إلى شجرة بإصبعنا فنقول، هذه شجرة، أو أن نشتمّ عطرًا معينًا فنقول هذه رائحة مسك أبيض، لكن ماذا عن الحبّ، ليس ثمّة تجسدٌ خارجي مادي يمكن الإشارة إليه على أنّه الحبّ، وإنّما الأمر أعمق من ذلك بكثير، وأبعد من أن يُشار إليه بإصبع، فهي حالة مجردة تكمن في البُعد العقلي من أبعاد العالم (الأنا العقلي)، فهي إذًا ذات طبيعة شمولية لا خاصة محدودة، ولذلك كان أمر التعبير عنها بلغة يومية (محدودة) مستعصيًا، وبذلك يكون أوّل داعٍ من دواعي الشعرية، ذلك الذي عبّر عنه عارف مثل محمد بن عبد الجبار النفّري بمقولته الشهيرة (كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة).

ما الذي حدا بشاعر كحافظ الشيرازيّ مثلًا للخلوة في ضريح (بابا كوهي) الذي قضى فيه أربعين يومًا في جبال شيراز، أو بفقيه قونيا الكبير جلال الدين الروميّ

للالتفات إلى عابر غريب أطوار يقف على كتف الطريق والتمسّك به لحدّ الخلوة معه أربعين يومًا، ما قصّة الأيام الأربعين تلك؟ لقد كان حافظ الشيرازيّ قبل تلك الخلوة أحدَ أتعس شعراء عصره، إذ بلغت به المنتديات الأدبيّة حدَّ الزهد لما كان عليه شعره من تدنّي، المنتديّات الأدبيّة التي كانت تنعقد في مجالس الأمراء والملوك، كحالة ترف فكريّ تشبه إلى حدّ كبير إن لم تكن هي نفسها الحالة الثقافيّة المعاصرة، تلك المحصورة ببعض الأشخاص الذين يحفظون شيئًا من الشعر، أو يكتبون شيئًا من الفذلكات اللغويّة، ويتباهون بأنّهم يتحدثون اللغة الفصحى، ويرتدون الجازجيت! ويتحايلون على القيم بمسوّغات لا علاقة لها بالعمل العقليّ تحت مسمّى (ثقافة)! كذلك كان جلال الدين الروميّ، فقيهًا خطيبًا مثقلًا بالبرستيج تتجاذبه حبائل الحركة الخارجيّة من كلّ ناحية.

إنّ ذاك السفر، الرحيل إلى الغيب الذي حدث مع جلال الدين الرومي مثلًا في خلوته، يشبه إلى حدّ كبير تلك الأفكار التي تتحدّث عن سماع صوت اللوغوس، وتلك التي تظهر في أدبيّات العرفان كافّة منذ كتابة ملحمة جلجاميش على تلك الألواح العتيقة مرورًا بألف ليلة وليلة وقصص السندباد وحاسب كريم الدين، وصولًا إلى حي بن يقظان، والغربة الغربيّة للسهروردي، وكلّها تنهج نفس النهج المتمثل بضرورة الغياب، والعودة من العالم الآخر بمفاتيح جديدة للأسئلة القديمة، وأسئلة جديدة لا مفاتيح لها! وهنا تكمن بوابة الأسطورة.

الأسطورة حيث مساحة شاسعة في قارة اللاوعي متخمة بالأحداث والشخصيّات والعناصر الأكثر قداسة في وجدان الإنسان، هناك حيث الآلهة وأكثر الأحداث خصوصيّة، كالخلق والبعثة والهجرة والشهادة، كلّها تتموضع كعناصر رمزيّة في بيت اللاوعي الكبير مشكّلة ما يعرف بالذاكرة الأزليّة.

وفي تلك الزاوية يجد الانسان وصلة بأكثر الأشياء تأثيرًا فيه، وأعمق نقطة في نفسه، فهي حالة خارج الزمان والمكان، حاضرة دومًا على هيئة اللحظة الراهنة، كملاذ يدخله الإنسان في لحظة شتاته الذهني إثر حوادث الواقع المرير، يتصل منها بحقيقته العميقة خارج إطار التاريخانيّة الماديّة، فشخصيّة كالإمام علي مثلًا، هي

للعامة الواقعيين (والفقهاء منهم) شخصية عاشت وماتت قبل قرابة ألف وأربعمئة عام، بيد أنّها لأولئك الباحثين عن حالة كاسرة للزمن في زاوية الأسطورة حاضرة دومًا، فقد ظهر الإمام علي في خلوة حافظ الشيرازي مهديًا إيّاه كأسًا مليئة بالماء. كما نجد الكثير من هذه الأحداث المشابهة في آثار المتصوفة باعتبار التصوف إحدى تشكّلات الأسطورة في اللاوعي البشريّ، فأفلوطين السكندري يخلع نفسه عن بدنه كخلع المرء لقميصه مرتفعًا إلى عالم الغيب متصلًا بالواحد، وفريد الدين العطّار يكتب رائعته عن جبل قاف وجلال الدين الروميّ يخلع جبّة الفقيه الخطيب متحوّلًا إلى جوّال في بلاد الله الواسعة باحثًا عن شمس تبريز، مظهرًا معاجزه اللغويّة بعد سنّ الخمسين!

لقد دخلت فارس كلّها طور التيه في الحقبة الممتدة من بداية الفتح الإسلاميّ حتى قيام الدولة العباسيّة على يد أبي مسلم الخراسانيّ، وكادت أن تفقد لغتها الفارسيّة إثر إقبال قومها على العربيّة وثقافتها الرائجة في تلك الحقبة، وهناك بدأ الاغتراب الكبير يأخذ شكل التصوف مرفقًا بعاملَين أساسيَّين، فقد ضاعف الحكم القمعيّ من جرعة الاغتراب، كما ساهم الحوار الحضاريّ الذي أدّت الترجمة فيه الدور الأكبر في ظهور القارة الروحيّة الأم، الدين الواحد المضمر داخل الأديان، والقائم على ثلاثيّة (الإله، العالم، الإنسان) متخذة شكل الدائرة، يمكن للعنصرين الأول والأخير فيها أن يتبادلا الأدوار وفقًا لحاجة الفرد.

إنّ هذا الضياع للهُويّة يأتي متزامنًا مع كلّ صور الضياع، هذا ما تفلح السلطة دومًا في صنعه، وهذا ما أدركه كلّ من قرّر الخروج على هذا الواقع المرير باحثًا عن هويّته الإنسانيّة الأولى في طيّات السماء تحت مسمّى التصوّف، وهو ما يفسّر من جهة الصراع الذي كان بين رؤوس الصوفيّة الاستقلاليّين كابن عربي والسهروردي وجلال الدين الرومي مع السلطة، ومن جهة أخرى ظهور الكمّ الهائل من الطرق والتكيّات الصوفية برعاية السلطة، في محاولة منها لخلط الأوراق. إذ لم يُعرف عن ابن عربي أو السهروردي أو الرومي أيّ انتماء لأيّ طريقة من الطرق المشهورة. وبذلك يدخل العارف طورًا اجتماعيًّا نفسيًّا جديدًا، يفرض عليه واقعًا معرفيًّا ولغويًّا جديدًا أيضًا،

وعلى ذلك .. يظهر الفارق بين لغة العامّة .. ولغة الخاصّة.

إذًا فهو الاحتكاك بالمقدّس، ممّا يعني ولادة وخلق جديدين، يرجع منه حافظ بحافظيّته الجديدة ليتحوّل إلى ما يعرفه به الناس اليوم، لسان الغيب، ويُبعث منه مولويٌّ جديد بعد سنّ الخمسين! وما يفسّر ذلك كلّه أنّ تلك الأفكار المجرّدة الكامنة في البعد العقلي، يتطلّب التوصّل إليها شيئًا من التخلّي عن هذا الزحام الخارجيّ الأهوج، الداخل على الذهن من بوابة الحواس الخمس، والتركيز فقط وفقط على تلك الحركة الجارية في العقل، وتأمّل مسيرة نمل الأفكار في دهاليز مغارة الروح، ولما كانت تلك الأفكار ذات طبيعة مجرّدة لا تتجسّد بالمادّة، ولكن تؤثّر فيها، بات أمر التعبير عنها بلغة يوميّة (ماديّة) مستحيلًا، ولذلك، ابتُكرت القصيدة!

إنّ ابتكار القصيدة يعني فتحًا لغويًّا، يقفز بسقف اللغة من إطارها التعبيريّ اليوميّ الماديّ، إلى فضائها الرمزيّ الإيحائيّ، حيث يتسنّى لها القبض على القدر الأكبر من الشحنة الإيحائيّة التعبيريّة لتلك الأفكار المجرّدة وتقديمها على ما هي عليه، طازجة ككعك الأعياد، بيد أنّ هذه اللغة لا تتأتّى فقط بالقالب (أي القصيدة، أو العمل السرديّ كالقصة مثلًا) وإنّما تتأتّى من ذاك التأثير الكامن في القالب، أي أنّها ذاك الأثر القادم من النص، فهي ليست النص نفسه، إذ يمكن التعبير عنها بالمعنى القابع وراء النص، كما أنّها أيضًا كحالة فكرية شعوريّة كامنة في فلك العقل، أي أنّها موجودة قبل النص أصلًا، قد تتخذ لنفسها مظاهر شتّى للتعبير، الأمر كلّه أنّ الشعر نظام مستقلّ يسكن خزانة الروح، يتصل به الإنسان بفعاليّة نفسيّة تجاوزيّة، قد يأخذ شكل حدثٍ صادم معين، أو سؤال فجائيّ يباغت ذهن المرء، أو لحظة عاطفيّة مفعمة، تأخذ صاحبها إلى وجه الحقيقة المطلقة، فتصطفيه مَعبرًا للظهور بهذا العالم، فإن فرض الشعر نفسه على صاحبه نغميًّا، ظهر كمقطوعة موسيقيّة، وإن فرض نفسه شكليًّا، ظهرت المنحوتة، وإن فرض نفسه شكليًّا لونيًّا، تجلّت الفنون البصريّة، وإن فرض نفسه لغويًّا، كُتبت القصيدة، وكلّ تلك المظاهر مظاهر شعريّة، وليس الشعر منحصرًا فقط بالقصيدة، فهي شكل من أشكاله لا أكثر.

إنّ هذا المعنى للشعر، المطابق لمعنى الرؤيا، وهذا المعنى للشاعر، المطابق

لمعنى الرائي، يختلف تمام الاختلاف عن ذاك المعنى الدارج لدى عامّة الناس، وعامّة ما يسمّى بالمثقّفين! الشاعر هنا لقب نطلقه على الكائن الأقرب إلى الحقيقة، والعامّة يطلقونه على لاعب الكلمات، الشاعر هنا لقب نطلقه على بوّابة عبور الحقائق إلى هذا العالم، والعامّة يطلقونه على السفسطائي الأمثل والدجّال الأوّل! ولذلك، يتحتّم علينا نفي صفة الشعريّة عن هذا النموذج الدارج، النموذج الذي يتّبعه الغاوون، وفي كلّ وادٍ يهيم .. ويقول ما لا يفعل، يقول، فقط لأنّ له لسان، وعلى ذلك كلّه يمكننا تعيين مصدر القوّة الكامنة في ما وردنا من آثار جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وغيرهما من الرّائين العارفين الذين كتبوا حضورهم الغيبيّ بقوالب شعريّة متفوّقة.